

نيتشه: العودة إلى الإغريق

Nietzsche: Returning to the Greeks

أ.د. بوسيف ليلى¹، جامعة وهران 2 – مجد بن أحمد

Leila boucif, University of Oran 02

La_boucif@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2018/08/23 تاريخ القبول: 2018/12/19 تاريخ النشر: 2018/12/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن التساؤل التالي كيف قرأ نيتشه فلسفة الإغريق و ما هي الآليات الفكرية والفلسفية التي قرأ بها باعتباره فيلسوف حدثي عقلاني ينتمي إلى العصر الذهبي للفكر الفلسفي الأوروبي ؟ هذه العودة للفلسفة الإغريقية هي عودة إلى هيراقليطس لقلب قيم العقلانية الأوروبية وإصلاح الفلسفة من خلال مبادئه الفلسفية الكبرى.

الكلمات المفتاحية: نيتشه، الفلسفة الإغريقية ، الفلسفة المعاصرة، إرادة القوة.

Abstract:

Nietzsche began with the thought of the Greek's Eternal Return which is considered as the concept of existence as being recurred and cyclical and which is limited and closed.

At the contrary, the other studies of “God of Delf”, the return or the recurrence is not cyclical in a Heraclitus sense that everything will recur as it was in its first state and where it existed. For Nietzsche, it is a repeated recurrence, but in a selective and negative way.

¹ - المؤلف المرسل

Moreover, the creator of a superman that goes beyond his father Zarathustra as it sums up by being confirmed and proved.

So, the eternal existence according to Nietzsche is selective and double at the level of thought and existence.

Résumé

Le but de cette étude est de répondre à la question suivante: Comment Nietzsche a-t-il lu la philosophie des Grecs et quels mécanismes intellectuels et philosophiques a-t-il lus en tant que philosophe moderniste rationnel appartenant à l'âge d'or de la pensée philosophique européenne? Ce retour à la philosophie grecque est un retour à Héraclite pour renverser les valeurs de la rationalité européenne et de la réforme de la philosophie à travers ses grands principes philosophiques.

Keywords : Nietzsche, Greek philosophy, contemporary philosophy, will to power

مقدمة :

إن العبقرية الفلسفية الإغريقية مبدعة أصيلة ، بل سبابة إلى ابتكار النسق الفلسفي المكتمل الذي لم يعمل الفلاسفة اللاحقون عليه سوى تكراره او اجتراره بالتأويل والتفصيل ، لقد ابتكروا في الواقع الأنساق الكبرى للفكر الفلسفي ولم يبق لمجمل الأجيال اللاحقة أن يبتكروا شيئاً يمكن أن يضاف إليها على حد تعبير نيتشه.

وبهذا كانت المعجزة اليونانية التي بلغت أوجها في القرن الخامس ق.م والتي لم تكن وكما يذهب البعض مجرد جمع لعناصر تلك الحضارات الأجنبية المتباينة . بل كانت إضافة لها ، و إعادة صياغة جديدة لها وصولاً لتوجه فكري جديد للإنسانية ، التي لا تزال تعمل منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم ، وفي مختلف الميادين وينسب متفاوتة من النجاح ومن الفشل ، على الإستمرار في ذلك التوجه.

1/ نيتشه والفلسفة :

لقد أدمج نيتشه (Neitszche، 1844-1900) الفلسفة بالحكمة (L'aphorisme) وبالشعر (La poésie)، وهو الإدماج الذي أعطى للفلسفة لديه، ولدى العديدين ممن جاءوا بعده، مفهوماً جديداً للفكر وللمفكر الفلسفي على حد سواء.

لقد استبدل نيتشه من خلال مثل ذلك الإدماج وكما يقول، مثال المعرفة (L'déal de la connaissance) واكتشاف الحقيقة (la découverte de la vérité) بالتأويل (L'interprétation)، الذي به يتحدد المعنى أي معنى، وبالتقييم (L'évaluation)، الذي يحدد القيمة التسلسلية لذلك المعنى، ويشمل كل أجزاءه دون، أضعاف أو إلغاء لتعددتها تلك.

ولأن الحكمة هي فن التأويل وموضوعه في نفس الوقت، تماماً كما أن الشعر هو فن التقييم وموضوعه كذلك وفي الوقت نفسه، فإن فيلسوف المستقبل، عند نيتشه، فنان وطبيب، حكيم ومشعر في ذات الوقت.¹

إن هذه الصورة التي يعطيها نيتشه للفلسفة ولل فيلسوف قديمة وجديدة في نفس الوقت. فهي قديمة لأنها قد وجدت منذ الفلاسفة الذي سبقوا سقراط والذين... كانوا أطباء وفنانين² ومفسرين ومقيمين للعالم أولئك الفلاسفة الذين وصفهم نيتشه بالفلاسفة الحقيقيين. وهي جديدة.. لأن فيلسوف المستقبل من ناحية أخرى رجل مكتشف أولاً لتلك العوالم الفكرية الفلسفية القديمة ولما فيها من قمم ومن كهوف، ولأنه، ومن ناحية أخرى وفي الوقت نفسه، رجل مبدع، ومستشف للمستقبل.. انطلاقاً، لا من ربطه لذلك المستقبل بالماضي، بل ومن ربطه كذلك وقبل كل شيء للفكر بالحياة، ربطاً يجعل الحياة تنشط الفكر بقدر ما يجعل هذا الأخير يؤكد بدوره استمرارية تلك الحياة.

إن ذلك يعني أنه يجب علينا أن ننظر إلى الفلسفة، مثلما فعل أولئك الفلاسفة اليونانيون القدماء، كقوة كان عليها، لكي تستمر وتمارس فاعليتها، أن تتخفى وتتقنع

بمختلف الأفقعة، وأن تقلد المادة بقدر ماكان على أصحابها أن يلبسوا لبوس الساحر، والراهب والطبيب بل والمجنون.

لكل ذلك ضاع سرّ الفلسفة ممثلاً في ذلك الربط بين الفكر بالحياة منذ البداية الأولى لها، ولكل ذلك أيضاً فإن فيلسوف المستقبل مطالب بإعادة اكتشاف وكشف مثل ذلك السرّ.

وذلك مالم يحدث بعد، فيما يرى نيتشه، حيث لا تزال.. الفلسفة لا تعمل إلا انطلاقاً من الانقلاب على ذاتها وعلى مهمتها تلك، بعيداً عن تلك الوحدة الضرورية بين الفكر وبين الحياة، وهي الوحدة التي لا تزال تستبدلها، وإلى اليوم، بالاستمرار في إصدار أحكامها الجزافية على الحياة وبمقابلتها وبمناقضتها لها لقيم تدعى أنها عليا وسامية.

بذلك تحول الفكر من ظاهرة نقدية فاعلة إلى ظاهرة سلبية، وفقدت الحياة، حيويتها، ونشاطها، متحوّلة بذلك إلى أشكال مرضية... تتماشى وتلك القيم السامية.

وبذلك أيضاً انتصرت الرجعية على الحياة العملية والنفي على الإيجاب.

وبذلك أخيراً انقلبت تلك الفلسفة المنشودة إلى ميتافيزيقا (سقراط) وانقلب الفيلسوف، من حكيم و طبيب، إلى جدلي وإلى معلم عمومي (أفلاطون).³

ولأن الفلسفة الحقيقية، عند نيتشه هي تلك، التي تعرف كيف تربط إيجابياً وحركياً بين الحياة وبين الفكر، فإن أبرز النتائج التي تولدت عن مثل هذه الرّدّة غير الطبيعية التي تعرفها الفلسفة والفلاسفة، هي انتصار القوى العدمية (le nihilisme) والرجعية والنافية لكل شيء، على حساب إرادة القوة، التي نلاحظ أنها لا تعني عند نيتشه، إرادة الأقوياء للتملك المادي أو لسيطرة الضعفاء، بل مقاومة الإرادة الايجابية لنزوع الارادة السلبية إلى السيطرة على هذه الإرادة الايجابية مدفوعة بذلك الانقلاب غير الطبيعي، لكل من الحياة ومن الفكر، والذي انتهى بنفوق قوة النفي (le non) على قوة الثبات (le oui).

وأمام مثل هذه الوضعية فإن استعادة سرّ الفلسفة، إنما يكمن، فيما يرى نيتشه، في القيام بانقلاب ثوري وعقلي وعلمي مضاد وشامل على مستوى القيم والفلسفة الاجتماعية والسياسية لتغيير تلك الأوضاع الفكرية والفنية والاجتماعية والسياسية

غير الطبيعية تغييرا شاملا، وصولا إلى الإبداع التجديد الذي يجب أن تزول أمامه كل العوائق، لتلتئم بذلك، ومن جديد، مسيرة الفكر و الحياة و صيرورة الإنسان والوجود.

"فالصيرورة" و "الحياة" و "الطبيعة" والمجتمع إذن شيء واحد عند نيتشه لأنها تعبر كلها عن مواقف ثلاثة من الوجود الحقيقي الذي لا وجود لشيء آخر غيره، لأنه وجودنا الذي نضطرب ونحيا فيه، والذي هو، نحن، و نحن هو.

لكل ذلك أعلن نيتشه أن أسلافه الأوائل من الفلاسفة ومن المفكرين ليسوا سقراط أو أفلاطون أو أرسطو أو ديكارت أو هيغل بل هيراقليطسو أمبادوقليس (Ampèdocle) وسبينوزا (Spinoza 1632-1677) و غوته (1749-1832, Goethe Johann Wolagang) أولئك الفلاسفة الذين اعتبرهم، دون غيرهم، الفلاسفة الحقيقيون.

ذلك أن ما يؤكد عظمه هؤلاء الفلاسفة الآخرين، خاصة هيراقليطس، هو أنهم رأوا، وكما يضيف نيتشه، في العالم عالما مطابقا تماما للقانون، أي العدل (Dikia) الذي يجب أن يكون تطبيقه وانجازه بكيفية مطلقة وأن يتحول بالتالي كل ما يخالفه إلى مجرد وهم (illusion).

2/ العودة الأبدية عند نيتشه:

إن عظمة و شجاعة هيراقليطس إنما تكمن أساسا، وكما يؤكد نيتشه، في رؤيته للتنازع وللتضاد المأسوي بين عناصر الكون المختلفة بمثابة لعبة عظيمة، وهي الرؤية التي جعلته يصل إلى تفاؤلية الفنان الذي يرى في كل شيء في الوجود مجرد لعبة ظاهرية⁴.

بمعنى آخر لقد أراد هيراقليطس أن يؤكد أن الوجود وهم، و أن العالم الظاهر وحده الموجود وأنه لا داعي بالتالي لإضافة عالم "حقيقي" إليه، كما فعل أفلاطون وغيره من الفلاسفة المثاليين.

و حين ينكر هيراقليطس مثل هذا، الوجود الوهمي فإنه يؤكد بذلك، أن العالم الوحيد الذي يحتفظ به هو ذلك العالم الذي تحميه قوانين أبدية، غير مكتوبة، عالم متحرك، مدا وجزرا، وفقا لقانون طلب لا استمرارية فيه لأي شيء⁵.

وهكذا فإن هيراقليطس الذي لم ير أي شيء حقيقي في الوجود، سوى الصيرورة، قد حول الكون والفساد والكثرة (Le devenir et la corruption) من مظاهر عقابية، كما هو الحال عند أنكسيمندريس (Anaximandre) إلى مظهر للواحد، بقدر ما اجتثت كلياً فكرة الثبات و الاستمرار بالنسبة لأي شيء، ما عدا تلك الصيرورة. تلك هي عظمة فكرة هيراقليطس حول الصيرورة، فيما يرى نيتشه، وهي الفكرة التي حولها الفيلسوف اليوناني إلى انفعال سام و إلى خوف سعيد⁶ وبذلك كان هيراقليطس، بالنسبة لنيتشه، الفيلسوف الوحيد الذي أكد براءة الصيرورة (L'innocence du devenir)، بقدر ما أكد أن "المركز" متواجد في كل مكان، وأنه لا وجود لأعلى أو أدنى، بل لقوى متصارعة أبداً عبر تلك الصيرورة، يعدم فيها القوي الضعيف، حفاظاً على دفع الفكر والحياة وعلى حيوتها، وتنتصر فيها، ومن خلال إرادة القوة، (La volonté de puissance) قوة الإثبات على قوة النفي، ليأخذ الوجود ذلك الطابع التفاوضي و ليندفع نحو التجديد الأبدي بعيداً عن الخير و الشر⁷.

ولأن قوة الإثبات هي أعلى درجة إرادة القوة ولأن "اللا" التي يواجه بها "زرادشت" (Zarathoustra)، لسان حال هذه الفلسفة الجديدة، "اللا" العدمية، فإن التحول الكبير يتحقق من خلال تلك الصيرورة التي لا تلتهم كل شيء. إلا لكي تجعل الوجود يتمثل تلك العدمية تماماً كما يتمثل الواحد الكثرة، وصولاً إلى هزيمة تلك العدمية القائمة على قيم النفي بالعدمية (الجديدة) (Vaincre le nihilisme par la nihilisme)، القائمة على الإثبات لكل القيم الإيجابية.

بذلك يتحول الع مل الفلسفي إلى عمل سعيد ويتفوق "دنيوزوس" Dionysos وأبولون "Apolon" على سقراط ولوقريطوس (Lucrece)، أي الحياة ودفعها، على الأحكام المعيارية.

وفي مثل هذه الصيرورة الدورية تظهر العودة الأبديّة التي تحكم الوجود من خلال صيرورة مختلفات عناصر، كحقيقة وحيدة لذلك الوجود المتولد عنها باستمرار، مثل تولد الواحد عن الكثرة، والضرورة عن الصدفة.

وآية ذلك أننا إذا نظرنا إلى الوجود، من ناحية جوهره وطبيعته، فإننا نجده صيرورة مستمرة، أي تغييرا دائما وحركة دائبة، وتطورا لا ينتهي، و ليس ثباتا كما ذهب الفلاسفة الذين تلوا سقراط، فالثبات عند كل من هيراقليطس ونييتشه وغيرهم وهم . غير أن العول لا يستطيع أن يدرك هذه الصيرورة التي ليس لها من غاية سوى ذاتها على حقيقتها وكما هي، وإنما يقدر على إدراكها حين يحيلها إلى سكون وثبات. فكما أن خلايا الجسم لا تستطيع أن تمتص الطعام إلا إذا تحول إلى شيء من جنسها، مماثل لها، كذلك العقل لا بد له أن يحول الوجود، الذي هو حركة مستمرة وتغير دائم، إلى شيء ثابت، كي يستطيع أن يعرفه. ولهذا فإن المعرفة والوجود الحقيقي يتنافيان، وهو يظهر لها في صورة المتمرد عليها، المتناقض معها. والعقل حين يتصور الوجود الحقيقي على هذا النحو إنما يخدم الحياة. فالحياة لكي تستطيع أن تحيا، لا بد لها من تصور الوجود شيئا محدودا معينا ثابتا، وبغير هذا لا تتصور الحياة. وإلا فإن الحياة إذا ما تصورت على شكل تغير دائم لذبت وانقضت. فنظرية الوجود بوصفها صيرورة نظرية "صحيحة، و لكنها مميتة " على حد تعبير نيتشه.

الحياة في نظر نيتشه إذن عبارة عن إرادة قوة أي إرادة استيلاء وتملك وتمثل، لا للإنسان أو للأشياء الخارجية، بل لقوى الإثبات، وهو التملك الذي لا يمكن أن يتم إذا كانت الأشياء في تغير مستمر. فلا بد أن تتصور تلك الأشياء إذن على نحو ثابت كي يمكن تمثيلها، ولهذا يقول نيتشه: "إن طبع الصيرورة بطابع الوجود الثابت أعلى نوع من إرادة القوة"⁸ وهذا بالمفهوم الذي سبقت الإشارة إليه لهذا الإرادة. أما إذا نظرنا إلى الوجود من الناحية الحيوية، فنحن نسميه حياة. والحياة ليست سوى مجموعة من القوى المرتبطة بعضها ببعض عن طريق عملية تغذية مشتركة... ويتبع هذه العملية كوسيلة لتحقيقها كل ما يسمى باسم الإحساسات والتصورات والأفكار، أعني أولا مقاومة كل القوى الأخرى (غير قواها هي)، وثانيا إعداد هذه القوى تبعا لصورة الحياة و سياقها و ثالثا تقويم الأشياء من أجل تمثلها أو طرحها والقضاء عليها " وأحيانا يسمي نيتشه حياة الإنسان باسم "الجسم" ولا يقصد به الجسم المعروف في التشريح: فهذا جثة وليس جسما بالمعنى المفهوم عند نيتشه. وإنما

الجسم كل الوظائف الحيوية اللاشعورية، أو هذه الحياة في كل المظاهر القوية الحياة بكل معاني الحياة.

من أجل هذا نرى نيتشه يشيد "بالجسم" ويعدّه أعظم من الروح بكثير. فالشعور أو الروح أو النفس بالنسبة إليه شيء فقير ضيق النطاق محصور، بل إن هذا الشيء ليس إلا أداة تقوم بخدمة الجسم إن الجسم الإنساني، الذي به يحيا و سحيا كل الماضي القريب و البعيد، ماضي الأحوال العضوية، والذي يجري فيه سيل هائل يتخلله ويعلو عليه وينفذ في جميع نواحيه: هذا الجسم (بهذا المعنى) فكرة أروع من فكرة الروح أو النفس القديمة.

أما الموت في نظر نيتشه فإنه جزء من الحياة حذار ان تقول ان الموت مضاد للحياة فهذه الحياة هي كل شيء، وليس الموت إلا جزء مكمل لها، أما الجزعما بعد الموت فليس له ما يبرره، لأنه ليس بعد الموت شيم ابعد الموت لا يعنينا بعد ، والموت عنده نوعان: "طبيعي" و "إرادي" .

اما الموت الطبيعي فلا داعي مطلقا للجزع منه، لأن الحياة ليس معناها " إرادة الحياة" إلى غير نهاية و "عدم إمكان الموت". وإنما معناها سيطرة الإنسان على الحياة من أجل الحياة، أي من أجل العلاء بالحياة والارتقاء بمستواها، فليس المطلوب إذا أن تحيا حياة طويلة، وإنما أن تحيا حياة حافلة خصبة زاخرة، ولابد بعد أن تأتي لحظة تشعر فيها بأن نضجك قد أكتمل وأنت لا تستطيع أن تعلو أكثر مما علوت، فتشعر بحاجتك الشديدة إلى الموت، لأنه التاج الذي تتوج به كل حياتك. وأعظم من هذا الموت الطبيعي وأروع، الموت الإرادي، فالموت الأول موت لا دخل لإرادة المرء فيه ، وهو موت في وقت غير مناسب، هو موت الجبناء.

فيجب على الإنسان -حبا في الحياة- أن يريد الموت على نحو آخر أن يريده حرا، مدركا، لا صدفة فيه ولا مفاجأة⁹ وفي الموت الطبيعي يكون الجسم شبيها " بحارس السجن الحزين "، الغبي المريض غالبا، الذي يحدد النقطة التي لابد لسجينه العزيز أن يموت فيها. إن الموت الطبيعي انتحار الطبيعة، أعني إفناء الكائنات العاقلة بواسطة غير العاقلة. لذلك يدعو نيتشه إلى الموت الإرادي أو الانتحار فيقول على لسان زرادشت: "كثير من الناس يموتون في وقت متأخر جدا، و بعضهم يموتون في

وقت مبكر جدا، ولا زال هذا القول: " مت في الوقت المناسب" سيبدو غريبا " مت في الوقت المناسب". هكذا يدعوك زرادشت.

لكن، إذا لم يكن بعد الموت شيء، لأن هذا الوجود هو وحده الوجود الحقيقي، فهل يفنى المرء نهائيا إلى غير رجعة؟ وهل لن يأتي على هذا الوجود وقت يكون فيه قد استنفد كل أنواع التراكيب و التفاعلات بين قواه المختلفة؟ أو سيظل الوجود يخلق أنواعا من الوجوه الجديدة إلى غير نهاية؟ وهل حياتنا التي حينئذ لحظة من الزمان قد ذهبت وغاصت في الماضي ولا سبيل إلى عودتها من جديد؟ ثم إن الوجود الحقيقي تطور وصيرورة، وحركة دائمة، ولكن الحياة لا يتسنى لها أن أتقوم الا إذا تصورت هذا الوجود على شكل وجود ثابت ساكن، ولو نسبيا على أقل تقدير، فكيف نوفق إذا بين الاثنين بين الوجود الحقيقي الذي هو صيرورة، وبين الوجود الذي نقول به المعرفة وتؤمن به الحياة وهو وجود ساكن ثابت؟ وهل أصبحنا عاجزين على العجز عن أن نسترد الزمان الماضي، ولم تعد لنا سيطرة عليه؟.

وخلاصة هذه الفكرة أن الصيرورة ليست مستمرة أو لا نهائية، بل أنها تصل في النهاية إلى فترة نهائية هي ما يسميه نيتشه بالسنة الكبرى (La grande année)، سنة جديدة لا تلبث بدورها أن تنتهي بفعل تلك الصيرورة لتبدأ سنة جديدة أخرى وهكذا دواليك.

إن ذلك يعني أن أزمنة الوجود عند نيتشه مقسمة إلى دورات، كل دورة من هذه الدورات تكرر تام للدورة السابقة عليها، وأنه لا اختلاف مطلقا بين الواحدة والأخرى. فكأن الوجود كله صورة واحدة تتكرر ظاهريا بلا انقطاع في الزمان اللانهائي كل شيء يغدو، وكل شيء يعود، وإلى الأبد تدور عجلة الوجود كل شيء يبيد، وكل شيء يحيا من جديد، وإلى الأبد تسير سنة الوجود.

وهذا التكرار يتناول كل التفاصيل و يشمل كل الجزئيات فكل الأحوال التي يمكن هذا العالم ان يصل إليها ، قد وصل هو إليها من قبل، لا مرة واحدة، بل مرات نهائية.

فهذه اللحظة التي أنا فيها وجدت من قبل عدة مرات، وستعود من جديد وقد وزعت فيها كل القوى كما هي في هذه اللحظة بالضبط، وهكذا الحال بالنسبة إلى اللحظة

التي سبقت هذه اللحظة، وتلك التي ستتلوها. أيها الإنسان، إن حياتك، كالساعة الرملية، ستعود من جديد وستذهب من جديد دائماً أبداً - وكل وجود من هذه الموجودات لا يفصله عن الآخر إلا الدقيقة الكبرى من الزمان، الضرورية لكي توجد من جديد كل الأحوال التي أوجدتك في دورة الكون. وحينئذ ستلقى من جديد كل ألم وكل سرور، كل صديق وكل عدو، كل أمل وكل خطأ، كل عود من الحشيش وكل شعاع من أشعة الشمس، وستجد نظام الأشياء كما هو عليه الآن.

وهذه الدورة التي أنت حبة فيها، ستتألاً من جديد، وهناك في كل دورة من دورات الوجود الإنساني ساعة تقوم فيها عند الفرد الواحد أولاً، ثم عند عدد كبير، ثم عند الجميع، أكبر فكرة وأفواها: فكرة العود الأبدي لكل الأشياء - وهذه الساعة في كل حالة هي بالنسبة إلى الإنسانية ساعة الظهيرة

لقد جاءت هذه الفكرة لنيتشه لا عن تفكير طويل وبحث علمي سابق انتهى منه إلى القول بها. بل أتت إليه فجأة ودون إعداد سابق فاستولت على كل فكرة، ورأها نورا ساطعاً وهاجا يضيء الأشياء من جديد، ويعطي للحياة قيماً جديدة أو بالأحرى يعطي للقيم التي وصل إليها من قبل صبغة زاهية قوية.

لكن نيتشه حاول بعد ذلك أن يثبت هذه الفكرة إثباتاً علمياً يقوم على نظريات في علم الطبيعة. بقوله أن مجموع القوى الموجودة في الكون ثابت محدد، وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود بدوره، وإن يكن هائلاً.

وذلك لأن المسألة لا تتعدى ثلاثة فروض: فإما أن يكون هذا المجموع يزيد، وإما أن يكون هذا المجموع ينقص، أو يكون هذا المجموع ثابتاً.

فالفرض الأول غير صحيح، لأنه إذا كان مجموع القوى يتزايد، فمن أين تحيئه هذه الزيادة، وليس هناك من وجود غير هذا الوجود؟ فلكي يكون هذا الفرض صحيحاً كان علينا أن نقول بوجود معجزة دائمة، بها تحدث الزيادة، وهذا ما لا نستطيع مطلقاً التسليم به ما دمنا نبحث علمياً، وإلا خرجنا من دائرة العلم الخالص إلى دائرة الأساطير والخرافق. وليس الفرض الثاني بأقل تهافتاً وبطلاناً من الفرض الأول: لأنه إذا كان مجموع القوى يتناقض، فلا بد أن تكون قوى الكون كلها قد نفذت وفنى الكون، لأنه مر قبل هذا الآن الذي نحن فيه ما لا نهاية له من الزمان.

وفي هذه اللانهاية السابقة على اللحظة الحاضرة كانت القوى، إذا كانت تتناقض، تكون قد تبددت كلها. و مادامت القوى لم تتبدد كلها،- فلا زلنا نحيا في الوجود و لازال هناك وجود- فإن مجموع القوى لا يتناقض، وعلى هذا فالقول بأن مجموع القوى الكونية يتناقض قول غير صحيح، وهو فرض يتناقض مع قانون لم يبق إذا بعد هذا إلا التسليم بأن مجموع القوى الكونية ثابت محدود، أي أنه متناه. ومادام متناهيًا فإن مجموع الأحوال والتغيرات والتركيبات والتطورات التي تحدث في هذه القوى، ولو أنه هائل لا يمكن تقديره عمليا، فإنه لابد أن يكون متناهيًا هو أيضا ومحدودا.

ولما كان الزمان لا نهائيا غير محدود، فلا بد أن تأتي كل لحظة من لحظاته - مهما كان من طول المدة السابقة عليها و التي مرت فيها الأحداث الكونية الممكنة كلها - فيها يعود تركيب سبق وجوده من قبل.

ولما كان قانون العلية (بالمعنى العلمي الخالص) : وهو تسلسل الحوادث و ارتباط الظواهر الواحدة بالأخرى وتتابعها، يقضي بأن يجر هذا التركيب وراءه التراكم المرتبطة به، وهذه بدورها تجر ما هي تابعة لها.

وهكذا فإن مجموع الظواهر و الأحداث سيتكرر من جديد، بنفس النظام و الطريقة والمقدار الذي وجد فيه في الدورة السابقة على هذه الدورة الثانية، و هكذا يستمر الحال و تأتي دائما دورات جديدة لا نهائية، ما دام الزمان غير متناهي.

فالزمان اللانهائي إذا مكون من دورات ولكل دورة زمانها المحدود، وكل دورة مماثلة للدورة الأخرى تمام المماثلة.

فالإنسان هنا وفقا لهذه النظرية سيحيا من جديد نفس الحياة التي يحييها الآن.

وسيعاني ما يعانيه، وسيكون حظه تماما كحظه الآن، لهذا يقول زرادشت "سيأتي يوم فيه تعود من جديد سلسلة العلل التي أنا مشتبك فيها، وستخلقني من جديد! وأنا نفسي سأكون من بين علل العود الأبدي .

"سأعود مع هذه الشمس، وهذه الأرض، وهذا النسر، وهذه الحية، لا من أجل حياة جديدة، ولا من أجل حياة أحسن، ولا من أجل حياة مشابهة " ¹⁰.

"إنما سأعود دائما أبدا إلى نفس هذه الحياة بعينها، وأنا لا أتعير، لا في صغيرة ولا كبيرة، سأعود لكي أعلم الناس من جديد نظرية العود الأبدي". ولكي أعلن من جديد ساعة الظهيرة الكبرى للأرض وللإنسانية، ولكي أبشر الناس ثانية " بالإنسان الأعلى ¹¹ "Le surhomme".

خاتمة:

مما تقدم نبين أن العودة الأبديّة عند نيتشه، لا تعني، وكما هو الحال عند هيراقليطس، العودة الدورية والمنكرّة للكل، بل أنها عودة انتقائيّة ومزدوجة un retour doublement sélectif وهذا على مستوى الفكر .. وعلى مستوى الوجود. فعلى مستوى الفكر فإن تلك الازدواجية التي تميز العودة الأبديّة عند نيتشه تتجلى من بين ما تتجلى من خلال مدّها لنا بقانون استقلالية الإرادة المخلصة من كل نزعة أخلاقية، كما تؤكد ذلك مختلف رغباتي وفضائلي ومساوي، والتي تفرض على قبولها لا مرة واحدة، بل مرات لا تنتهي والقبول ضمنا وبالتالي بتلك العودة الأبديّة ¹². بذلك تتحول تلك النقائص خاصة، ومن خلال رغبتني في عودتها باستمرار، وذلك من خلال تمسكي بها، إلى قوة فاعلة.

وعلى المستوى الوجود فإن تلك العودة الأبديّة تتجلى في كونها ليست مجرد عودة انتقائيّة، بل أنها وجود انتقائي كذلك و في الوقت نفسه. بذلك كانت العودة الأبديّة عند نيتشه عودة للإثبات، إثبات ما يجب أن يعود وفي مقدمته الفرح (La Joie) ¹³. أما مختلف القوى النافية والسلبية فإنها تجد نفسها مطرودة بحركيّة هذه العودة الأبديّة التي هي أشبه بحركة العجلة (La roue) التي تطرد بقوتها الكامنة كل سلب.

وبذلك أيضا لا تعود أي قوة سلبية إلى الوجود مرة ثانية، وتطرد منه بالتالي كل أشكال الحقد والوعي السيئ والعدمية والرجعية.

وبذلك أخيرا نفهم أن العودة الأبديّة التثاوية ليست دورية بالمعنى الهراقليطي حيث يعود من خلالها كل شيء إلى ما كان عليه ¹⁴، وكما كان عليه، وصانع للإنسان

الاعلى الذي تجاوز أباه، زرادشت، لأنه خلاصة كل ما يمكن أن يثبت ويؤكد. ولأنه كذلك فإن أباه الحقيقي هو " ديونزوس" (Dionysos) رمز النشوة و الفرح تماما كما أن إلهه الحقيقي ليس اللوغوس (Logos) كما هو الحال عند هيراقليطس، بل الإنسان الأعلا*.

فالعودة الننتشواوية الى الاغريق هي عودة الى هيراقليطس لقلب قيم العقلانية الاوروبية وإصلاح الفلسفة من خلال مبادئه الفلسفية الكبرى .

الهوامش :

1. Gille Deleuz :Nietzsche, col. Philosophes, PUF, 1968, pp, 13 – 14.
2. F. Nietzsche : Par-delà le bien et mal, trad, G. Bianquis, Paris, 1960. pp,20.
3. Cf :Nietzsche :La volonté de puissance, trad. G. Bianquis, 1960. pp,30.
4. جيل دولوز : نيتشه ، تعريب أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، ط 1، 1998، ص31
5. -F. Nietzsche : La volonté de puissance, III, p 111.
6. G. Deleuze, Nietzsche, pp, 17- 22
7. -Nietzsche : La tragédie grecque, chapt, 2. , p, 120.
8. عبد الرحمن بدوي: نيتشه، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة، 1965، ص 237-238.
9. جيل دولوز: نيتشه والفلسفة ،ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 2001، ص 45 .
10. Nietzsche : Ainsi parlait Zarathoustra. II. p, 180.
11. Ibid, prologue, 3.p, 45.
12. Ibid,, p, 46.
13. Ibid, p, 47.
14. J. brun : Héraclite, ou la philosophie de l'éternel retour, 17 editions, seghers, par-is, 1965-1969. p, 43.
- *. J. brun : Héraclite, ou la philosophie de l'éternel retour, 17 editions, seghers, par-is, 1965-1969. p, 43.

